

الصوت والحرف في عرف الدارسين

د/ طيبي أمينة

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة جيلالي اليابس

سيدي بلعباس

للعربية تفرد في مجال الأصوات يشهد به أهلها، والأجانب عنها، وقد أفصح علماءها الأوائل عن كثير من جوانب هذا التفرد، وألوانه، وخاصة في مجال ذوق الحروف المفردة، وتركيب الكلمات والعبارات منها .

ولا تزال المبادئ التي وضعها الصوتيون العرب مناط إعجاب كثير من المهتمين بالدراسات الصوتية.

لقد حاول الإنسان - منذ القدم أن يعرف ما حوله في هذا التحول الفسيح واتخذ لذلك عدة وسائل كان أهمها الكلام الذي قوامه الأصوات، فالوسيلة الصوتية هي أحسن الوسائل في عملية التواصل الإنساني إذا ما قارناه بالوسائل الرمزية والإشارية الأخرى الممكنة، مثل الكتابة والتصوير والحركات الجسمية و مختلف العلامات الإشارية وغيرها¹.

فالتواصل الصوتي يمكن أن يتم مع وجود حواجز دون أن يستخدم الشخص حواسه الأخرى لهذا احتاج الإنسان أن تكون في طبعه قدرة على أن يعلم الآخر الذي هو شريكه ما في نفسه بعلامة وضعية، وكان أخلق ما يصلح لذلك هو الصوت لأنه يتشعب إلى حروف تتركب منها تراكييب كثيرة... وبعد الصوت إثارة إنها تهدي من حيث يقع عليها البصر².
ثم إن الإنسان اعتاد بما وهبه التل من عقلية مميزة، وذكاء فطرة أن يصدر أصواتا للتعبير عما يدور في نفسه ، وما تمليه عليه رغباته الشخصية والجماعية وما يحيط به من أجواء.

ينشأ الصوت الإنساني باصطدام الهواء الخارج من الرئتين بالأوتار المعوية في الحنجرة، ثم يمر خلال الفم أو الأنف ، حتى يصل إلى أذن السامع .

فالصوت الإنساني لا يخرج عن الصوت الطبيعي من حيث إنه أثر سمعي ينشأ من اتصال جسم بآخر في جهاز النطق الذي يمثل مصدر الصوت ثم ينتقل في الوسط الناقل للصوت كما هو في الطبيعة إلى جهاز استقبال وهو الأذن، يقول فندريس : " إن ما يسمى صوتا هو

الأثر الواقع على الأذن من بعض حركات ذبذبية للهواء ، والذبذبات في اللغة يحدثها الجهاز الصوتي للمتكلم³.

إن القدامى بحسبهم الدقيق وذكائهم المتقدم اهتموا إلى أهمية الصوت اللغوي، الذي ينتج الجهاز الصوتي للإنسان، شارحين أهميته وصلاحيته لإنتاج عدد كبير من الأصوات تبعا لهذه المخارج المتعددة في الحلق و الضم والشفتين⁴ ، و قد وفقوا في ذلك إلى أبعد حد، فكان أول ما بدؤوا به تعريف الصوت، و إن كانت نظرتهم له لا تشفي غليل المحدثين من العرب، الذين رأوا في مفهوم القدامى اضطرابا و خلطا، مع أن المتتبع لها يلمس فيها من الصواب ، ما يجعله يجزم على صحة ما توصلوا إليه.

فالصوت مصدر الشيء يصوت صموتا فهو صائت وصوت تصويتا فهو مصوت، وهو عام غير مختص يقال: سمعت صوت الرجل، و صوت الحمار، قال الله تعالى: "أن أنكر الأصوات لصوت الحمير"⁵ ، و يقال: رجل صات أي شديد الصوت، و حمار صات، فأما قولهم لفلان صيت (إذا انتشر ذكره في الناس فمن هذا اللفظ ، وكأنهم بنوه على (فعل) بكسر الفاء وسكون العين للفرق بين الصوت المسموع ، وبين الذكر المعالم⁶.

فأما الحرف فالقول فيه ، وفيما كان من لفظه أن (ح رف) أينما وقعت في الكلام يراد بها حد الشيء و حدته ، من ذلك حرف الشيء ،إنما هو حده، وناحيته وطعام حريف يراد حدته ورجل محارف محدود عن الكسب ، والخير، ومنه (ومن الناس من يعبد الله على حرف) أي على غير ثبات ، ومن هنا سميت حروف المعجم حروفا وذلك أن الحرف حد منقطع الصوت وغايته، وطرفه، كحرف الجبل ونحوه ، ويجوز أن تكون سميت حروفا لأنها جهات للكلام ونواح، كحروف الشيء ، وجهاته المحدقة به ، وكل اشتقاق المادة يدل على هذا المعنى⁷.

الصوت في عرف علماء الأصوات عملية حركية ذات أثر سمعي، من أداء المتكلم في نشاطه اللغوي العادي اليومي⁸.

أما الحرف فهو وحدة تصنيفية يقول بها دارس اللغة حين يقسم العدد الأكثر من الأصوات إلى العدد الأقل من الحروف، إذ قد يشمل الحرف الواحد على أكثر من صوت واحد ، و الحرف في اللسانيات الحديثة هو صورة وهينة لجميع الأصوات التي تتدرج في جنس واحد من التآديات الصوتية المادية. فهو ظاهرة مجردة ترجع إلى النظام اللغوي أما الأصوات المختلفة فهي ظواهر كلامية مادية ،الحرف إذن "حزمة من الصفات الذاتية"⁹.

لو عدنا الآن إلى مفاهيم القدامى سنجد أن الصوت عند ابن جني مثل هو: " عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرضن له في الحلق و الفم والشفيتين مقاطع تثنيه عن امتداده، واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا"¹⁰ والضمير له يعود إلى الصوت، و(عرض) راجع إلى المقطع، ومن هنا نفهم أن ابن جني يسمي المقطع هنا حرفا و المعروف أن المقطع هو مخرج الحرف لا الحرف¹¹. فهو يتحدث عن صورتين، عن الحالة السمعية فيستعمل مصطلح صوت، والأخرى الخطية أو تلك التي ترسم الكلمات والجمل، و يتضح ذلك أثناء تشبيهه للحلق بالناي، حيث: " الصموت يخرج فيه مستطيلا أملس، ساذجا، كما يجري الصوت في الألف غفلا بدون صدى فإذا وضع الزاهر أنامله على خروق الناي المنسوفة، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذاك إذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة¹²، فهو لم يشأ أن يقابل صوت الناي بمصطلح "حرف"، لأنه يقابل بين مثلين، يتعلقان بالجانب السماعي، لذا تجده يردد مصطلح "صوت".

إن المتتبع لكلام ابن جني يدرك أنه يعرف و بدقة معنى كل لفظة ترد في عباراته، ففي قوله: "وتختلف أجراس ❖ الحروف بحسب اختلاف مقاطعها ❖ ألا ترى أنك تبتدئ الصوت من أقصى ثم تبلغ به أي المقاطع شئت، فتجد له جرس ما، فإن انتقلت عنه راجعا منه، أو متجاوزا له ثم قطعت أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأول، و ذلك نحو الكاف فإنك إذا قطعت بها هنا صدى، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإن جزت إلى الجيم سمعت غير دينيك الأولين"¹³ إنه هنا يتحدث عن تنوعات لصوت الكاف، فمع أن لهذا الصوت رسم واحد في اللغة العربية، إلا أن تنوع الاستعمال يجعلنا نسمعه بصورة عديدة، وبهذا يفرق ابن جني بين الحرف كوحدة لغوية "وبين الأصوات التي يمكن أن تصدر من مخرجه، تبعا للضغط الواقع عليه.

بل وذهب الفلاسفة أيضا المذهب نفسه، فابن سينا مثلا يرى أن الحرف هيئة للصوت عارضة له يتميز بها عن صوت آخر مثله في الحدة و الثقل تمييزا في المسموع"¹⁴، إن كلمة عرضة تدل على أن للصوت حدوث مؤقت و ليس حدوثا دائما مجمدا، و هي مشتقة من المصطلح المنطقي "العروض" و هو ضد الجوهر، و يحدد لنا بأن هذه الأصوات تتميز فيما بينها بالنسبة لإدراك الأذن فقط، و هذا تعبير دقيق كما يصفه علماء الإدراك السمعي لما قاله " تمييزا في المسموع"¹⁵، بل وأبعد من ذلك كله، يعطي ابن سينا الصوت بعده الفيزيائي أيضا

فيرى أنه " كما تشككتكم في اللمس فجعلتموه قوى كثيرة لأنه يدرك متضادات كثيرة، وكذلك السمع أيضا يدرك المضادة التي بين الصوت الثقيل والحاد، ويدرك المضادة التي بين الصوت الخافت والجهير والصلب والأملس والمتخلخل والمتكاثف، وغير ذلك من القوى؛ فالجواب عن ذلك المحسوس الأول هو الصوت، وهذه أعراض تعرض لمحسوسه الأول بعد أن يكون صوتاً¹⁶ ، فالمضادة بين الثقيل والحاد تصف لنا حالة التردد ، والمضادة بين الصوت الخافت والجهير تصف الشدة، ؛ الاختلاف بين الأصوات الصلبة والمساء والمخلخلة والمتكاثفة يصف الشكل الموجي¹⁷ .

يطالعنا الجاحظ بتعريفه فيقول: " الصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً ، إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف"¹⁸ .

بروي أحد الفلاسفة أيضاً: "أن الله خلق القلم الأخضر من نور أخضر، ثم أنطقه، بثمانية وعشرين حرفاً، هن أصل الكلام، وهىأها بالصوت الذي يسمع وينطق به، فنطق بها القلم، فكان أول ذلك نقطة، فنظرت إلى نفسها، فتصاغر وتواضعت لربها، وتمايلت هيبة له، وسجدت، فصارت همزة.

فلما رأى الله عز وجل تواضعها، مدها وطولها، فصارت ألفاً، فتكلم بها ثم جعل القلم ينطق بحرف حرف، إلى ثمانية وعشرين حرفاً، فجعلها مدار الكلام..."¹⁹ .

إن كان في كلام الفيلسوف ما يناقضه العقل ، إلا أنه يحمل تمييزاً واضحاً بين الحرف والصوت ، مما لا يدع أي مجال للشك أن بعض الدارسين القدامى ميزوا بين مصطلح "الصوت" و "الحرف" وإن ذهبوا في بعض الأحيان إلى التنويع بينهما، فتجدهم يعبرون عن الصوت بالحرف، وبالصوت عن النفس كما في كلام سيبويه: "الشديد هو الحرف الذي يمنع الصوت من أن يجري فيه"²⁰ ، إذ إن الصوت الشديد يحكم أمامه الانسداد مما يحول دون مرور الهواء عند نقطة اتصال عضوي النطق.

بل ويستعمل ابن جني أحياناً مصطلحاً ثالثاً وهو "اللفظ"، وتجد هذا في تسمية أبوابه الثلاثة في كتابه الخصائص، فيقول مثلاً "باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" وهو لا يريد من مصطلح "لفظ" إلا ما نعرفه أي صوت، لأنه يتحدث عن أهمية الصوت في التمييز بين بعض المعاني، مثلاً: يستعمل للأكل عبارتي "الخضم و القضم"، لكن الفرق أن الأولى نستعمل للربط، والأخرى للصلب اليابس²¹ .

يرى بعض الباحثين أن العرب لم يفرقون بين الصوائت و الصوائت تفريقا صوتيا، فالمعروف أن الفرق بينهما في علم اللغة الحديث يتمثل في وجود عائق في طريق الهواء وعدم وجوده، فإذا جرى الهواء حرا طليقا فالصوت صائت أو حركة، وإذا حجز إحدى مناطق النطق فهو صامت أو ساكت ولكن علماء العرب أطلقوا (الحرف) عليهما معا، ولا تقابل لفظ حركة عندهم لفظ ساكن أو صامت ، بل يقابل ما يسمى السكون وهو انعدام الحركة²²، ويعزو هؤلاء السبب في عدم التفريق بينهما إل نظام الكتابة العربية فهو في - رأيه - الذي أضاع معالم هذه المقابلة الرئيسية بين الحروف والحركات .

أما العرب فقد عرفوا فعلا هذين النوعين من الأصوات ، فسموا الصامتة - ❖ فقط بالحروف- واهتموا بكونها أساس البناء الصري لتكون مواد الكلمات وأصولها والنوع الثاني وهو الصائت أو الحركات كان للعرب حظ موفور في الاهتمام به ومعرفة خواصه بل قالوا بما قال به المحدثون في شأنها ، فالخليل قديما أشار إلى أن (الألف والياء) هوائية ليس لها حيز تتسبب إليه إذا جعلها في حيز واحد : " إلا أنها لا يتعلق بها شيء"²³ ، وكان حيزها الجوف:"فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا مدارج الحلق، ولا من مدرج اللهاة، وكان يقول كثيرا: الألف اللينة والواو والياء هوائية"²⁴ أي أنها في الهواء في حازر لها .

كان ابن جنني أيضا على رأس علماء العربية الذين، عالجوا هذا الموضوع بدقة، حيث وصف الأصوات الثلاثة باتساع المخارج²⁵، بما يؤكد أنها تنطلق مع الهواء دون عائق في أية منطقة من مناطق النطق .

ثم إن ابن جنني لا يقف عند هذا الحد وحسب بل راح يحاول وصف مخارجها بما أوتي من حس وذكاء متقد ، الأمر الذي أدى به إلى التأكيد على أن الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الياء، والواو. والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو ، والعلة ذلك أنك تجد الفم والحلق ، في ثلاث أحوال بمختلف الأشكال أما الألف فتجد الحلق و الفم معها متفتحين ، غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر، وأما الياء فتجد معها الأضراس سفلا وعلوا قد اكتفت جنبتي اللسان ، وضغطته ، وتفاج الحنك عن ظهر اللسان فجرى الصوت متصعدا هناك، فلأجل تلك الفجوة ما استطال ، وأما الواو فتظم لها معظم الشفتين ، وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس ، ويتصل الصوت فكما اختلفت أشكال الحلق و الفم ، والشفتين مع هذه الأحرف الثلاثة اختلف المدى المنبعث من الصدر.

طبعاً والأكد أن ابن جنى لا يتحدث إلا عما نعرفه نحن بالعلل أو السواكن، ويميز في الواو والياء بين حرفين أرجعهما مع الأصوات الصامتة، دون أن يتحدث عن ذلك أو أن يصطلح على النوعين بمصطلحين مختلفين، العكس كما نجده عند الفيلسوف المتميز حين قسم العلل إلى صوامت و مصوتات، فذكر الياء الصامتة و الواو الصامتة، ثم الألف المصوتة، ومثلها الواو والياء، كما فرق بين الحركة القصيرة و الطويلة "الألف الصغرى والكبرى، الواو الصغرى والكبرى، الياء الصغرى والكبرى"²⁶، مؤخراً إياها في ذيل قائمة المخارج • أضيف إلى ذلك أنه لم يصنف الألف مع الهمزة ، كما :فعل ابن جنى و سيبويه ، فكان حديثه عن الصوامت ثم أشباه المصوتات ثم المصوتات •

وبالنسبة للحركات القصيرة فإنها عندهم بعض أصوات اللين الحليلة، فالفتحة بعض الألف، و الكسرة بعض الياء، والضممة بعض الواو، الأمر نفسه الذي عبر عنه ابن سينا بـ"الصغرى".

وكان تذوق الحرف سبيلهم في معرفة ذلك، كما فعلوا مع الصوامت، بأن تأتي بالحرف ساكناً لا متحركاً ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله لأن الساكن لا يمكن ابتداء به فنقول إك، إق، إج، وكان سائر الحروف²⁷، وقد وافق ابن جنى على ذلك بعض الباحثين المحدثين كالدكتور علي عبد الواحد وإي، فقد صرح بأن الوسيلة المريضة لمعرفة مخرج أي صوت هي أن تأتي بهمزة قبله ثم تأتي به ساكناً أو مشدداً فحيث ينقطع الصوت يكون مخرج الحرف.

إن أقل الناس إماماً بالرصيد اللساني بالتراث العربي، يدرك لا محالة أن الجانب الصوتي قد حظي باهتمام خاص لدى الدارسين الأقدمين على اختلاف توجهاتهم العلمية ، منهم القراء والنحاة، يل حتى علماء الأصول والفلاسفة.

الهوامش:

1. محمد صالح الضالع " علم الأصوات عند ابن سينا" - دار المعرفة- دط - دت- ص4.
2. محمد عاطف العراقي " فن السماع الطبيعي من الشفاء لابن سينا - تراث الإنسانية- دط - 1970- ص 264.
3. فندريس اللغة - تر: عبد الحميد الدواخلي ومحمد قصاص- القاهرة- دط- 1980- ص 43

4. أبو الفتح عثمان بن جني " سر صناعة الإعراب " - تحقيق حسن الهنداوي —دار
القلم - دمشق - ط2 - 1413هـ / 1993 - ص11.
5. الآية 19 من سورة لقمان.
6. سر صناعة الإعراب 11/1.
7. نفسه 15/1.
8. تمام حسان " مناهج البحث في اللغة - دار الثقافة - الدار البيضاء - المغرب -
1400هـ / 1979 - ص166.
9. Jakobson R : Essais de linguistique générale - Editions de
minuit - Paris -1963.
10. سر صناعة الإعراب 6/1.
11. مناهج البحث في اللغة 219.
12. سر صناعة الإعراب 19/1.
- ❖ الجرس (Noise) : أثر سمعي غير ذي دذبذة مستمرة مطردة كالنقر على الخشب أو
الطبللة و كالاصطدام... وما يسمع نتيجة سقوط جسم آخر. ينظر: مناهج البحث في اللغة -
59.
- ❖ أي مخارجها.
13. سر صناعة الإعراب 12/1 .
14. ابن سينا" الشفاء -الطبيعيات- النفس- تحقيق الأب جورج قنواتي، و سعيد
زايد- الهيئة العصرية العامة للكتاب- دط- 1975 - ص 73
15. علم الأصوات عند ابن سينا 42.
16. الجاحظ " البيان و التبیین " - تحقيق و شرح الأستاذ عبد الملام هارون، مطبعة لجنة
التأليف و الترجمة والنشر- القاهرة- ط1 - 1368 / 1948 - ج1 / ص 76
17. رمضان عبد التواب "ثلاثة كتب في الحروف" - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط1
1983 - ص 133.
18. سيبويه " الكتاب" تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون- دار الجيل - بيروت-
ط1 - 1411 هـ / 1991 - ج4 / ص489.
19. ابن جني "الخصائص " - تحقيق محمد علي النجار- دار الهدى للطباعة و

- النشر- بيروت- لبنان- دط-دت- ج2/265.
20. ابن جني "الخصائص" - تحقيق محمد علي النجار- دار الهدى للطباعة و النشر- بيروت- لبنان- دط-دت- ج2/265.
21. جان كانتينو "أصوات اللغة العربية" نقله إلى العربية و ذيله بمعجم صوتي فرنسي عربي صالح القرمادي نشریات الدراسات و البحوث الاقتصادية والاجتماعية - ط1 - 1969- ص 20.
22. نفسه
23. الخليل ابن أحمد الفراهيدي - " العين" - تحقيق عبد الله درويش- مطبعة المعاني ببغداد- دط- 1967- ج1 / 24- 25.
24. سر صناعة الإعراب 8/1.
25. ابن سينا "أسباب حدوث الحروف" الفصل الرابع.
26. سر صناعة الإعراب 7/1.
27. رمضان عبد التواب - فقه اللغة" - دار النهضة - القاهرة - دط- 1940- ص 160.